لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

معالم في الطريق

عرض ورؤية

الدكتور

فتحي ابراهيم الشقاقي

سيد قطب

دار الشروق

معالم في الطريق

عرض ورؤية

الدكتور
فتحي إبراهيم الشقاقي

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم
والذين جاهدوا فينا
لنهدينهم سبلنا
وإن الله لمع المحسنين

صدق الله العظيم

معالم في الطريق

عرض ورؤية

كانت الجماهير تبحث عنه كخبزها اليومي ، وكان ورثة البوليس السياسي يطاردونه كشبح يقض مضاجعهم ، كان الشباب المؤمن يحملونه تحت ثيابهم ... في جيوبهم ، وتحت وسائدهم ، وكانت الصحافه المأجوره تنشر صورته (مطلوب حيا أو ميتا) كأنه عبد الله النديم أو أي بطل وطني مطارد ، كان المؤمنون يتناقلون كلماته همسا ، وكان صوت المذياع الفاجر يتوعد من شاهده ولم يبلغ بالويل والثبور ... إنه واحد من أخطر الكتب الإسلاميه في القرن الأخير ، كان ولايزال ، وسيبقى ...إلى فتره طويله من أشد الكتب تأثيرا على مسيرة الحركه الإسلاميه في هذه المنطقه ...إنه الكتاب الذي قتل رجلا كتبه ، وأحيا جيلا تربى عليه ... إنه « معالم في الطريق » آخر ماكتب الإمام الشهيد { سيد قطب }

وسيد قطب واحد من ثلاثه مفكرين يشكلون مثلثا خطيرا في الفكر الإسلامي الحديث في النصف الثاني للقرن

العشرين ...الآخران هما المفكر الجزائري المسلم «مالك بن نبي » ، والدكتور «علي شريعتي » مفكر الثورة الإيرانية الفذ ، ذهب ثلاثتهم إلى الغرب المسكون بحمى العداوة للإسلام فكانت رحلتهم نقيضا لآخرين سبقوهم ، فالأزهري المعمم « رفاعة الطهطاوي » عاد من باريس مذهولا من « عربه الرش » ، والشيخ « طه حسين » وقف عاجزا ومهزوما أمام الشك الديكارتي ، أما سيد قطب فقد إكتشف حسن البنا ، وآمن بأفكاره عندما كان في قلب أمريكا ، وكان علي شريعتي يقف في « الكوليج دي فرانس » يكتشف ذاته ، ويكشف الآخرين بشكل معجز ... كان يصيح في وجه البروفيسور الكبير داخل قاعه المحاضره « من أجل أن يشبع عاملكم ، وصاحب عملكم سلبتمونا كل ما نملك وأبقيتمونا جياعا » . أما مالك فقد أمضى في أوروبا أكثر من ثلاثين عاما . لم يكن فيها مبهورا من نظافه الشوارع ، ولاعاجزا أمام نظريات علم الإجتماع ، بل متأملا يحلل ، ويضع « شروط النهضه » للمجتمع الإسلامي القادم ، ولم يكن بين الثلاثه رجل دين

واحد ، فقد كان سيد قطب أديبا وناقدا قال عنه أستاذ الأدب في الجامعه الأمريكيه في بيروت (لو لم ينحرف « سيد قطب إلى السياسه لكان مدرسه فريده في النقد !!! » الأدبي الحديث)

وكان علي شريعتي عالما في الإجتماع ، أما مالك ، فكان مهندسا كهربائيا ، تخرج من كبريات المعاهد العلميه في باريس .

(١)

في منتصف الستينات كانت العلمانية في الوطن الإسلامي تصل إلى ذروة طغيانها وجبروتها ، بل إن واحدا من أهم رموزها « عبد الناصر » كاد ... بل توج فعلا كنصف إله ... في هذاالوقت بالذات كان الإمام الشهيد سيد قطب يفتتح كتابه « معالم في الطريق » معلنا إفلاس كل من الديموقراطية الغربية والإشتراكية الماركسية التي تراجعت كأيديولوجية ، وانحصرت في الدولة وأنظمتها ، كان يعلن إفلاس هذه الأنظمة ، وإفلاس « الوطنية » و « القومية » أو العلمانية التي صدرها الغرب إلى الوطن الإسلامي وكان إعلان الإفلاس هو طريق البداية ... بداية رؤية جديدة وقيادة جديدة للبشرية ، ولكن الإفلاس لم يكن في الجانب المادي بل في خسارة الغرب لرصيد « القيم » الذي يؤهله لقيادة البشرية ، ولايملك أحد غير الإسلام تقديم قيم صالحة وفعالة ومنهج ماضي .... إن دوره يجيء والبشرية في أشد الساعات حرجا واضطرابا ، ولكن كيف يمكن أن يؤدي دوره وهو الذي لايتمثل اليوم في مجتمع ، أو أمة ، وليس أكثر من عقيدة مجردة ، إن الطريق يبدأ بإعادة الوجود للأمة التي ستقود العالم ، وإعادة الوجود يتطلب بعث الأمة وتحريرها من ركام الأجيال والتصورات ، وركام الأوضاع والأنظمة التي لاصلة لها بالإسلام ، ولكن المسافة بين محاولة « البعث » وتسلم « القيادة » مسافة شاسعة ،

لأن الأمة غابت طويلا عن الوجود والشهود ، ولأن البشرية لاتفرط بسهولة في العبقرية الأوروبية التي أبدعت علما وثقافة ، وأنظمة وأنتاجا ماديا ، وخاصة أن ما « يسمى بالعالم الإسلامي » يكاد يكون عاطلا من كل زينة .... « ولكن لابد مع هذه الإعتبارات كلها من البعث الإسلامي مهما كانت المسافة شاسعة بين محاولة البعث وبين تسلم القيادة ، فمحاولة البعث الإسلامي هي الخطوة الأولى التي لايمكن تخطيها » ...... { العبارة الأخيرة التي إستندت اليها المحكمة أثناء محاكمة الإمام الشهيد } .

إننا نتقدم لقيادة البشرية ونحن نحمل مؤهلا آخر غير الإبداع المادي الذي يجب أن نحاول فيه جهدنا كضرورة ذاتية .... والمؤهل الذي نحمله هو العقيدة والمنهج ، وأن تتمثل هذه العقيدة والمنهج في مجتمع مسلم يتحرر فيه الناس من عبادة بعضهم البعض بعبادة الله وحده ، ولكن كيف تبدأ عملية البعث ؟

لابد من طليعة تعزم العزمة وتمضي في الطريق .... ولابد لهذه الطليعة من نظرية ثورية أو كما أسماها « معالم في الطريق » ، ويكون منوطا بهذه المعالم أو النظرية الثورية تحديد :

١- منطلقات هذه الحركة الطليعية { نقطة البدء في الرحلة الطويلة }

٢- أهدافها { صلب غايتها }

٣- تحديد وسائلها ومراحل حركتها {أين تلتقي مع الناس وأين تفترق .... كيف تخاطب هذه الجاهلية بلغة الإسلام وفيم تخاطبها ؟}

٤- تحديد مفاهيمها ، خصائصها ، طبيعة دورها ووظيفتها ، وكذلك تحديد شكل النضال ضد الجاهلية القائمة { كما تعرف طبيعة موقفها من الجاهلية }

٥- رؤية تحليلية للنظام القائم وأدواته ووسائله ومراكز القوى المؤثرة فيه { خصائص الجاهلية ومن حولها }

وهذه النظرية الثورية أو المعالم لابد أن تنبثق من القرآن وتوجيهاته ،وحركة جيله الأول الذي رباه محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

(٢)

بعد أن يتساءل عن ظاهرة عدم تكرار ذلك الجيل الصحابي يطرح أسبابا ثلاثة هامة :

١- صفاء النبع القرآني صنع الجيل الأول ، وإختلاط النبع كان يرافق ثقافة وتصورات الأجيال التالية ... والمقصود بصفاء النبع هنا هو التلقي عن القرآن في التصور والمنهج ، وليس المقصود ماتصوره البعض من عزلة عن المناهج الأخرى وعدم إطلاع عليها ، فحديث عمر رضي الله عنه ... والصحيفة من التوراة لها دلالة أبعد مما تصور هؤلاء ، فعمر لم يكن يطلع فقط وإنما كان يبحث عن حل لمسألة واجهته في وقت لم يكن التشريع قد إكتمل بعد ، والرسول عليه الصلاة والسلام لم ينهه

عن الإطلاع ، وإنما نهاه عن الإتباع « لو كان موسى حيا بين أظهركم ماحل له إلا أن يتبعني »

... والإطلاع والمعرفة لايوجب الإتباع ، وإنما البحث عن حل لمسألة هو الذي يقود لذلك ... ويؤكد هنا قول الشهيد في فصل « التصور الإسلامي والثقافة » : « إنه { المسلم } قد يطلع على كل أثار النشاط الجاهلي » وسنشرح ذلك في حينه .

٢- منهج التلقي للتنفيذ صنع الجيل الأول ، ومنهج التلقي لمجرد الدراسة والمتاع والمعرفة والثقافة خرج الأجيال التالية .

٣- كانت لحظة إسلام إنسان الجيل الأول تعني تحولا حقيقيا لعهد جديد حيث تقوم العزلة الشعورية الكاملة بين حاضر المسلم وجاهليته ، ليس بمعنى عزلة التعامل اليومي ، ولكن بمعنى الإنخلاع من عرف الجاهلية ... قيمها ، تصوراتها ، وعاداتها ... الإنخلاع من الولاء لها ولقياداتها ... والولاء للتجمع الإسلامي الجديد ولقيادته ... ولأن ثقافة الناس اليوم غير إسلامية ... وكذلك تصوراتهم ... تقاليدهم ... فنونهم ... آدابهم ... شرائعهم وقوانينهم ، فإن على الطليعة التي ستواجه الجاهلية { الجاهلية ليست مرحلة زمنية مرت ، ولكنها أوضاع إجتماعية ، وثقافية وسياسية ترفض الإهتداء بهدي الله ، وتستبدل بهديه شرائع الطواغيت } ... على هذه الطليعة :

١- التجرد في فترة الحضانة والتكوين من مؤثرات الجاهلية { ومرة أخرى ليس التجرد هنا هو الجهل وعدم معرفة العالم ... العالم الذي

سنتجاوز تناقضاته ونهديه السبيل ، إن هذا التصور الساذج خطأ وخطر في آن واحد ، كما أنه في النهاية مستحيل !) ... إن التجرد يعني رفض قيم الجاهلية (التي عرفناها) وأن نستمد تصورنا من النبع الصافي القرآني الخالص الذي لم تشبه شائبة .

٢- التعامل مع آيات الله وكأنها تتنزل الآن من خلال منهج التلقي للتنفيذ ، وليس مجرد الدراسة ، وهذا هو الأسلوب الأمثل لنمنع تحول الإيمان إلى نزعة فردية ، ونبقيه وهجا وقوة وفعلا ... أي روحا قرآنية تمارس دوما التركيب المبدع .٣- مقاومة ضغوط المجتمع الجاهلي ... رفض تصوراته ... تقاليده ... قيادته ... ورفض الإصطلاح مع واقعه ...

٤- أن تفهم هذه الطليعة أن هذا الواقع الجاهلي يناقض المجتمع الإسلامي ، ويحرمها بالقهر من تطبيق منهج الله في حياتها ، وبالتالي فليس أمامها إلاتغييره من أساسه ، وبداية فهذا يتطلب :

(أ) الإستعلاء على قيمه وتصوراته

(ب) ألاتتنازل عن قيمها ولاتعدل فيها لتلتقي معه في منتصف الطريق

(ج) أن تستعد لتقديم التضحيات الباهظة .

* * *

(٣)

ثلاثة عشر عاما كاملة والقرآن الكريم يقرر في نفوس المسلمين حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية والعلاقة بينهما ... إنها قضية الإنسان الخالدة ، لأنها قضية الوجود الإنساني والمصير الإنساني إنها قضية ! الوجود الإنساني والمصير الإنساني على توالى الأزمان ، ولكن لماذا بدأ بهذه القضية ؟:

إخلاص العقيدة متمثلة في « لاإله إلا الله » رغم العناء الشديد الذي واجهته الحركة بسبب طرحها :

* ألم يكن أسهل على محمد صلى الله عليه وسلم أن يعشها قضية قومية تحرر الأرض العربية من الروم والفرس ، فيقف وراءه العرب - بدلا من أن يضطهدوه ، ويعذبوه - ثم يطرح قضية التوحيد في النهاية ! كلا ... إن الله يعلم أن هذا ليس هو الطريق الذي يبدأ بأن تتساوى جميع الأجناس تحت راية الله ، وتصبح جنسية العقيدة هي جنسية البشر ، إن الله يعلم أن الطاغوت هو الطاغوت ، عربيا كان أم فارسيا ، أم رومانيا

* ألم يكن بإستطاعته أن يعلنها ثورة إجتماعية يجمع بها الفقراء ، وهم الأغلبية ضد الأغنياء الذين سرقوا قوتهم وحقوقهم ، وبعد أن يتولى قيادة هذه الأغلبية التي تحمل مضمونا إجتماعيا يسعى لإقرارعقيدة التوحيد ... كلا .... فالله يعلم أن العدالة الإجتماعية لابد أن تنبثق من تصور إعتقادي شامل ... يرضاه البشر عن طواعية ... يستقر في

قلوبهم وهم يتطهرون ثم يجري على أيديهم ، وهنا يصبح للعدالة الإجتماعية قيمة حقيقية ، ووظيفة حقيقية بعيدا عن الفوضى والشعارات المزيفة .

* ثم لماذا لم يعلنها دعوة إصلاحية في مجتمع يعاني من أزمات أخلاقية على أكثر من مستوى ، حيث الظلم ، والخمر ، والميسر ، والدعارة ... وبالتأكيد كان سيقبل عليه جمهرة صالحة تطهر نفسها ، ويستطيع أن يطرح عليها بعد ذلك عقيدة لا إله إلا الله ، كلا ... فالله يعلم أن الأخلاق التي لاتقوم على عقيدة تقرر القيم والموازين وتقرر السلطة التي تستند إليها هذه الموازين والقيم وتقرر الجزاء الذي تملكه هذه السلطة ... قبل هذا تظل القيم متأرجحة وكذلك الأخلاق بلا ضابط ولا سلطان ولاجزاء وهكذا لم يرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم ليعلنها ثورة قومية ، أو عدالة إجتماعية ... أو دعوة إصلاح للأخلاق ، وإنما أرسله ليقرر في القلوب حقيقة لاإله إلا الله قبل كل شيء ... وبعدها تتطهر أرض العرب من الرومان والفرس ليقوم سلطان الله وليس سلطان العرب ... وقامت العدالة الإجتماعية بإسم الله فتطهر المجتمع من الظلم الإجتماعي وكذلك تطهرت النفوس والأخلاق وهكذا إرتفعت البشرية في نظامها وفي أخلاقها وفي حياتها كلها إلى قمة سامقة لم ترتفع إليها من قبل إن أي إنحراف عن هذا المنهج سواء بإعلانها دعوة قومية إو إجتماعية أو إصلاحية أو

أخلاقية ما كان يكفل نصرا حقيقيا ولا تقدما حقيقيا ولما قدم للبشرية هذا النموذج الحضاري المنقذ

هكذا إستمر القرآن المكي يطرح قضية لا إله إلا الله ، ومن خلال جانبين هامين في طبيعة هذا الدين..

١- بناء العقيدة .... تمكينها ، شمولها وإستغراقها لشعاب النفس الإنسانية كضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة وهكذا دون التطرق إلى تفصيلات النظام أو الشرائع أي أنه لم يطرح في مكة برنامجا شاملا في الإقتصاد والسياسة .... وقبل أن تستقر العقيدة في القلوب وينصاع البشر لله حاكما ومشرعا ، ولكن الذي يجب أن يفهمه الجميع أن القرآن ومنذ اليوم الأول لم يغفل عن إصدار التوجيهات الإجتماعية والسياسية والإقتصادية فأول آيات القرآن الكريم « سورة العلق » تطرح قضية حضارية هي إحداث التوازن بين الغيب والعلم ، بل وتوحيد القراءتين الأولى بإسمالغيب ، والثانية بإسم العلم ، الأولى بإسم الله والغيب « بسم ربك الذي خلق .... « حرف الباء » ، والثانية بمعية الله « وربك الأكرم » .... « حرف الواو » بل وإعتبر تجاوز إحدى القراءتين على الأخرى طغيانا .... لم يغفل القرآن حتى في تلك المرحلة المكية عن إصدار توجيهات أكثر دلالة سياسيا وإقتصاديا وإجتماعيا « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله »(الشورى ٢١) « وأمرهم شورى بينهم » (الشورى ٣٨)... وهو أيضا ينذر ويتوعد المطففين الذين يلعبون بإقتصاد الناس وأرزاقهم (سورة المطففين) ...

بناء الجماعة والحركة بالعقيدة وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة حين أن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي يطرح أن الله سبحانه كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الحركي الفعلي وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو الصورة المجسمة للعقيدة كان يعني أن العلاقة بين النظرية والممارسة هي علاقة جدلية حية نامية بإختصار وعلى عكس النظريات الأرضية ليس هناك معنى لنظرية إسلامية ثورية بدون واقع وتجمع حركي عضوي يتفاعل مع الجاهلية المقابلة ومع رواسبها في أذهان أفراد هذا التجمع ولا ينسى الإمام الشهيد سيد قطب أن يحذر المسلمين المخلصين من الوقوع فريسة الضغوط الجاهلية التي تحاول إحراجهم فتسألهم تقديم حلول لمشاكل غير إسلامية (١) صنعها واقع غير إسلامي إن للإسلام منهجه الرباني الخاص في عملية التغيير وهو حين يرفض التصورات الإعتقادية السائدة يرفض أيضا المنهج الذي يبني هذه التصورات ويلزمنا بمنهجه كما إلتزمنا بعقيدته ونظامه .

كان هدف الدعوة الإسلامية ليس فقط تعريف الناس بالإله الواحد وإنما أيضا تعبيدهم له ونبذ ربوبية الخلق ... هدفها إخراجهم من سلطان العباد في حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم إلى سلطان الله وحاكميته ، هدفها أن يخضع الإنسان بشطريه اللاإرادي (الفطري ..) والإرادي لتوجيه الله ...فالتصور الإسلامي يقوم على أساس أن الوجود كله من خلق الله وأن الإنسان جزء من الوجود الكوني وأن الله سن الشريعة لتنظيم حياة الإنسان والوجود وينسقها كلها جملة واحدة كل

وفي الآيات الثلاث الأولى المكية من سورة الماعون يجعل الله دع اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين « قضية إجتماعية وإقتصادية وحتى سياسية » يجعلها صنوا للتكذيب بالدين .

أقول هنا حتى لانحمل كلمات الإمام الشهيد هنا أكثر من مدلولاتها ... وأخيرا فهو نفسه الذي كتب « معركة الإسلام والرأسمالية » و « العدالة الإجتماعية في الإسلام » .

٢- الإسلام منهج عملي حركي جاد ... منهج يتعامل مع الواقع ، وليس نظرية تتعامل مع الفروض ... منهج يطرح التشريعات لحالات واقعة فعلا في مجتمع يعترف إبتداء بحاكمية الله في مجتمع يملك المسلمون فيه سلطانا على أنفسهم ... فالله سبحانه وتعالى لم ينزل نظما وشرائعا ، هي مواد دستورية يختزنها المسلمون للتطبق عند قيام الدولة في المدينة (١) لأن الإسلام لايفترض مشكلات يضطر بعدها لإفتراض حلول ... إنه يواجه الواقع ... وأي واقع ؟ ... واقع جديد مختلف تماما ... واقع يصنعه منهج الإسلام ... له مشاكله الخاصة وملابساته وظروفه الخاصة ، وهكذا فصياغة القوانين والتشريعات (الدستور) في وقت يرفض المجتمع فيه تحكيم شرع الله أمر غير واقعي ، وغير جدي ... مهزلة أن نصنع دستورا يشمل موادا ، وقوانينا تفصيلية لمجتمع لم يتشكل بعد أو لمجتمع يرفض الإسلام أصلا ... وربما كانت التجربة الإسلامية في إيران المثل الأوضح فقد آمنت الجماهير بعقيدة لاإله إلا الله ... وتقدمت وأسقطت الطواغيت تحت هذا

الشعار ، ثم صوتت لصالح الجمهورية الإسلامية ، أو الإستعداد لقبول شرع الله { وهي تفهم قواعده وأصوله وتوجيهاته } ثم جاء الدستور الإيراني في النهاية .

— ٤ —

ولكن كيف عالج القرآن الكريم قضية العقيدة في تلك الفترة ... هل كانت نظرية باردة بين دفتي كتاب ... هل كانت لاهوتا ... هل كانت جدلا كلاميا كالذي سمي « بعلم التوحيد » ... كلا ... فالقرآن جاء ليطهر الإنسان ... ينقذ فطرته من الركام ... يفتح منافذ الفطرة كي تتلقى وتستجيب . ومن هنا كانت معركة القرآن معركة حية واقعية لاتناسبها نظرية جاهزة بين دفتي كتاب ولاجدال ذهني قائم على منطق شكلي « علم التوحيد » ولا لاهوت يقبع في الزوايا الضيقة ... لقد جاء القرآن الكريم ليبني العقيدة في ضمير الجماعة المسلمة التي سيخوض بها المعركة مع الجاهلية ورواسبها في الضمير والأخلاق والواقع ، ولهذا كان لابد لبناء العقيدة أن يكون فعلا وممارسة وأن يظهر في صورة تجمع عضوي حيوي ... أي تنظيم يباشر الحياة متمثلا في الجماعة المسلمة ... وهكذا تتضح لنا شيئا فشيئا ربما أخطر أطروحات الإمام الشهيد ... إن بناء ونمو الجماعة في واقعها الحركي هو الترجمة الحية لبناء ونمو العقيدة أيضا ، وهما لم يكونا منعزلين ولم يسبق أحدهما الآخر ... لم يرسل الله نظرية ليجلس محمد صلى الله

عليه وسلم وثلة من أتباعه لدراستها وتحليلها قبل طرحها للممارسة والتطبيق (إن هذا من طبيعة نظرية كالماركسية حوتها دفات كتاب وضعه مثقف قضى حياته بين رفوف الكتب ثم جاء من يتبنى النظرية ويؤسس حزبا يحملها) .

إن طرح العقيدة الإسلامية بشكل نظري مجرد للدرس والمعرفة خطأ وخطر (بالقياس إلى الإسلام) في نفس الوقت ويشكل ظاهرة غريبة على طبيعة هذا الدين ....

إن الذين يريدون صياغة نظرية ثورية (إسلامية) كاملة قبل أن يبدأوا حركتهم إما أن يفشلوا أو أنهم لن يبدأوا أبدا ، وفي الحالين سينتهون كظاهرة منحرفة عن منهج الإسلام فهذه النظرية لن يصوغها إلا الجهد والعرق والممارسة الثورية الملتزمة وليس مجرد البحث والدراسة لأن كل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي ولايتمثل من خلاله خطأ وخطر في نفس الوقت .

إن الجهد والعرق والممارسة هي الضمانة الأكيدة أمام ظهور نظرية صائبة . « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » (العنكبوت ، ٦٩) « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ... » (الكهف ، ١٣ ، ٢٤ » . لاحظ « آمنوا » ، « فزدناهم » ، .. « ربطنا » ... « قاموا » ... « قالوا » ... إنها الإشارة إلى الجدل بين النظرية « العقيدة» والممارسة « التجمع الحركي والحي » . وحين يطرح المفكر العظيم أن الله سبحانه كان يريد

كلمة من كلمات الله وكل أمر شطر من الناموس العام تتناسق معه فالإلتزام بالأمر (الشريعة) ناشئ من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان وحركة اللكون الذي يعيش فيه فوق أنه إعتقاد يتحقق به إسلامنا .

وحين يطرح المفكر العظيم أن الله سبحانه كان يريد بناء الجماعة والحركة بالعقيدة وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة ، حين يطرح أن الله سبحانه كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الحركي الفعلي وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو الصورة المجسمة للعقيدة كان يعني أن العلاقة بين النظرية والممارسة هي علاقة جدلية حية نامية ، بإختصار وعلى عكس النظريات الأرضية ليس هناك معنى لنظرية إسلامية ثورية بدون واقع وتجمع حركي عضوي يتفاعل مع الجاهلية المقابلة ومع رواسبها في أذهان أفراد هذا التجمع .. ولا ينسى الإمام الشهيد سيد قطب أن يحذر المسلمين المخلصين من الوقوع فريسة الضغوط الجاهلية التي تحاول إحراجهم فتسألهم تقديم حلول لمشاكل غير إسلامية (١) صنعها واقع غير إسلامي ، إن للإسلام منهجه الرباني الخاص في عملية التغيير وهو حين يرفض التصورات الإعتقادية السائدة يرفض أيضا المنهج الذي يبني هذه التصورات ويلزمنا بمنهجه كما إلتزمنا بعقيدته ونظامه .

كان هدف الدعوة الإسلامية ليس فقط تعريف الناس بالإله الواحد وإنما أيضا تعبيدهم له ونبذ ربوبية الخلق .. هدفها إخراجهم من سلطان العباد

في حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم إلى سلطان الله وحاكميته ، هدفها أن يخضع الإنسان بشطريه اللاإرادي « الفطري » ... والإرادي لتوجيه الله ... فالتصور الإسلامي يقوم على أساس أن الوجود كله من خلق الله وأن الإنسان جزء من الوجود الكوني وأن الله سن الشريعة لتنظيم حياة الإنسان الإرادية تنظيما متناسقا مع حياته الطبيعية ، وهكذا فالشريعة جزء من الناموس الإلهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان والوجود وينسقها كلها جملة واحدة .. كل كلمة من كلمات الله وكل أمر شطر من الناموس العام تتناسق معه فالإلتزام بالأمر « الشريعة) ناشيء من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه فوق أنه إعتقاد يتحقق به إسلامنا .

ولكن المسلم في رحلته ، طلب الشريعة الإلهية وتحكيمها في حياته يواجه بالجاهلية التي ترفض هذا المطلب وتقوم على التصادم بين الجانب الإرادي في حياة الإنسان والجانب اللاإرادي (الفطري) ، وحيث أن المواجهة هنا تصبح واجبا شرعا وعقلا ، فلنا أن نسأل ، كيف ستتم المواجهة ؟

بداية هذه الجاهلية تتمثل في نظرية قد تكون نظرية ماركسية أو نظرية رأسمالية ، أو نظريات مشوهة مسروقة عنها كتلك المسماة (الإشتراكية العربية) مثلا . وأحيانا لاتوجد نظرية على الإطلاق كحال أغلب دول الوطن الإسلامي اليوم ، ولكن من المؤكد أن هذه الجاهلية كانت دوما ممثلة في تجمع حركي (مجتمع) له قيادته وتصوراته وتقاليده ، مجتمع

عضوي يتحرك دائما واعيا أو غير واع للمحافظة على كيانه ومحاربة عناصر الخطر التي تهدد وجوده (عندما بدأت نظرية أتاتورك تهتز في تركيا تقدمت المؤسسة العسكرية ـ أقوى العضلات في جسد الجاهلية التي دشنها أتاتورك ـ تقدمت لحماية النظرية من الخطر الذي هددها ـ الإسلام ـ) ... ولأن الواجب الشرعي للمسلم وقدره هو إلغاء هذه الجاهلية التي تقوم على (نظرية) وتجمع مقابل مكافىء لها في القوة أو أقوى ، لأن النظرية المجردة لاتغير واقعا فعندما يكون المطلوب إلغاء الوجود القائم وإقامة وجود آخر يخالفه في طبيعة منهجه وكل جزئياته فلابد أن تتمثل المحاولة الجديدة في تجمع عضوي حركي أقوى نظريا ... تنظيميا وإجتماعيا من المجتمع الجاهلي القائم فعلا ، ومن هنا تنبع أهمية أن يفهم الذين يقرأون هذه المعالم ويسترشدون بأفكار الإمام الشهيد هذه الجاهلية كنظرية وكتنظيم ومؤسسات وعلاقات إجتماعية هم مقبلون على تغييرها ، فهل يعقل أن تغير شيئا تجهل طبيعته وتركيبته ؟ هل يمكنك مقاومة جاهلية تجهل أدواتها ووسائلها ... ومن ناحية أخرى فالنظرية الإسلامية المتمثلة في « لاإله إلا الله » والتي تعني إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية ، والربوبية والحاكمية ... هذه النظرية أو القاعدة النظرية إن كانت مجردة فليست ترجمة للإسلام الذي هو حياة وواقع حي يتفاعل مع واقع آخر ، ومن هنا يرفض الإسلام أن يعتنق أتباعه نظريته بينما هم أفراد ضمن كيان عضوي جاهلي يدينون له بالولاء لأنهم بذلك يعملون على تقوية مجتمع يعملون نظريا على إزالته !! ، يبقون خلايا حية تمده

بعناصر البقاء بدلا من تقويض وجوده وإقامة المجتمع المسلم ، إن وجود تجمع عضوي حركي مقابل للجاهلية يدين بالولاء لله ورسوله ولقيادة إسلامية رشيدة ينخلع من الولاء لغيرها ... هو الترجمة الحقيقية للعقيدة والنظرية الإسلامية ، فالمجتمع المسلم لايتحقق بالنوايا الحسنة ولابمجرد قيام النظرية في قلوب الأفراد مهما كثر هؤلاء .

* * *

ـ ٥ ـ

بعد أن يورد الإمام الشهيد سيد قطب تلخيصا لمراحل الجهاد في الإسلام نقلا عن إبن القيم في « زاد المعاد » والذي يقسم أهل الأرض إلى ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن ـ مسالم آمن ـ خائف محارب ... بعد ذلك يتكلم عن السمات الأصيلة والعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين

١- الواقعية الجدية : فهو حركة تواجه الواقع البشري بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي بالدعوة والبيان لتصحيح التصورات والمعتقدات ، وبالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة التي تحول بين الناس والحق ... إنها حركة لاتكتفي بالبيان في مواجهة السلطان المادي ، وفي نفس الوقت لاتستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد .

٢ ، ٣ - الواقعية الحركية : فهو حركة ذات مراحل ، لكل مرحلة وسائلها

المكافئة وأهدافهاالمرحلية ، إنه لايطرح نظريات مجردة ، وبالتالي لايمكن أن يواجه الواقع بوسائل متجمدة ، ومن هنا إعتقادي أن الرأي القائل بأن تحقيق الأهداف المباشرة ، وغير المباشرة ، المرحلية والنهائية مرهون بقوالب جاهزة ووسائل أعدت سلفا أمر مرفوض من خلال هذه السمة التي يطرحها سيد قطب ، ليس معنى هذا أن الوسائل المتجددة ستكون منفصلة عن المنطلقات والأهداف على الإطلاق لا إن الوسائل مرتبطة جدليا بهذه المنطلقات والأهداف... وأي إنفصام بينهما إنحراف يقع فيه الكثير من العاملين في الدعوة الإسلامية كهؤلاء الذين يسيرون مغمضي الأعين جاهلين منطلقاتهم وأهدافهم المرحلية زاعمين أنهم يتملكون وسائل الرسول عليه الصلاة والسلام وطريقه القويم وهذا عينه هو السمة الثالثة التي يطرحها اللشهيد قائلا : إن هذه الحركة الدائبة والوسائل المتجددة لاتخرج عن قواعده المحددة وأهدافه المرسومة .

٤- الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى كما جاء في تقسيمة إبن القيم في « زاد المعاد » (مسلم - مسالم آمن - محارب خائف) ، وهذا ينطلق من أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه أو تسالمه بجملتها فلاتقف في طريقه .

ثم يستمر في عرض رؤيته عن هذا الدين كإعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية لهواه وللعباد ، وإعلان ربوبية الله للعالمين ، إن إعلان ربوبية الله تقتضي الثورة الشاملة على حاكمية البشر بكل

أشكالها ، وأوضاعها ، وهذا لايتم بمجرد البلاغ لأن المتسلطين على رقاب العباد والمغتصبين لسلطان الله لايسلمون في سلطانهم بمجرد البلاغ والبيان . إن إعلان التحرير هذا ليس إعلانا نظريا فلسفيا سلبيا - بل إعلان حركي واقعي إيجابي يجب أن يتحقق وبالتالي لابد من أن يأخذ شكل الحركة إلى جانب شكل البيان ، وذلك ليواجه الواقع البشري بوسائل مكافئة ، البيان يواجه العقائد والتصورات والحركة تواجه العقبات المادية الأخرى ، وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الإعتقادية التصورية ، والعنصرية والطبقية والإجتماعية والإقتصادية المعقدة والمتشابكة ، فأي سذاجة أن يتصور أحد أن دعوة تعلن تحرير النرع الإنساني في كل الأرض ثم تقف أمام العقبات الهائلة التي تعترض طريقها باللسان والبيان فقط ... إن الإسلام لايكره الناس على إعتناق عقيدته ، ولكن الإسلام ليس مجرد عقيدة ... إنه إعلان لتحرير الإنسان بهدف إزالة الأنظمة التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر ، وعبودية الإنسان للإنسان ، إن النظام الذي يحكم البشر يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وذلك بتلقي الشرائع منه وحده ثم بعد ذلك يعتنق الفرد في ظل هذا النظام مايعتنقه من عقيدة ، أي يصبح الدين كله لله ، والدين يحمل مدلولا أشمل من العقيدة فهو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة ويعتمد على العقيدة ولكنه أشمل منها ... وهكذا فالجهاد الإسلامي لم يكن يوما عملية دفاعية ، إنه يحمل في ذاته مبررات التحرير العام للإنسان يحمل مبررا ذاتيا في طبيعة منهجه الواقعي ولايقف مدافعا وإلا

فقد أهم مبررات وجوده ... إنه على عكس ماإعتبرة بعض الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع ... هؤلاء الذين غش أبصارهم التصور الغربي لطبيعة الدين فاعتبروه مجرد عقيدة في الضمير أو نحلة قوم وليس منهجا أرسله الله للحياة البشرية .

ـ ٦ ـ

إن كانت العبودية لله هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية فإن التلقي عن الرسول صلى الله عليه وسلم في كيفية العبودية هو شطرها الثاني محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا يقودنا لتحديد بعض القضايا الأساسية لهذا الدين :

طبيعة المجتمع المسلم :

إنه المجتمع الذي يدين بدين العبودية لله وحده ضمن هذه الشروط الثلاثة :

١- الإيمان بوحدانية الله عقيدة في الضمير فهو الموجود وجودا حقيقيا وهو الفاعل فعلا حقيقيا ، وليس الطبيعة أو إبن الله ! وليس دورة رأس المال أو صراع الطبقات .

٢- التوجه لله وحده بالشعائر التعبدية « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » (الأنعام ١٦)

٣- تلقي الشرائع والقوانين عن الله سبحانه ، ورفض كل شرائع وقوانين البشر والطواغيت « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم

يأذن به الله » (الشورى ٢١) .... « وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا » (الحشر ٧)

هذه هي الشروط الثلاثة كي يكون المجتمع مسلما لأن تخلف أحدها يعني تخلف الإسلام نفسه عن الوجود لأنه عقيدة وعبادة وشريعة .

× ولكن كيف ينشأ هذا المجتمع المسلم :

١- جماعة من الناس قررت أن عبوديتها الكاملة لله وحده في الإعتقاد والشعائر والشرائع .

٢- تنظيم حياة الجماعة على هذا الأساس فلا تبقى في ضميرها أحد غير الله ، ولاشعائر توجه لغيره ولاقوانين إلا منه .

٣- يبدأ الأفراد بعد ذلك في الإنتقال من العبودية لغير الله إلى العبودية له وحده في داخل هذا المجتمع الذي تكون فعلا .

٤- على المجتمع الجديد أن يوفر الإمكانيات والظروف الموضوعية التي تجعله قادرا على مواجهة الضغط الجاهلي فيسعى لتملك قوة الإعتقاد وقوة الخلق ، وقوة التنظيم والبناء الجماعي .

ـ ٧ ـ

بعد ذلك يطرح الشهيد تصوره عن المجتمع الجاهلي ، إنه كل مجتمع لايخلص عبوديته لله وحده ... ويدخل تحت هذا التعريف ، المجتمعات الشيوعية واليهودية والنصرانية وأخيرا تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة ! فهي وإن كانت في الغالب لاتعتقد بالوهية أحد غير الله ، وتعتقد أن له وحده الشعائر التعبدية ... إلا أنها لاتدين له

بالحاكمية في حين أن الله تعالى يقول عن الحاكمية « ومن لم يحكم بما أنزل الل فأولئك هم الكافرون » (المائدة ، ٤٤) ويقول عن المحكومين « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ،وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به » إلى أن يقول « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ... »

ـ ٨ ـ

تحت عنوان « الإسلام هو الحضارة » يشير الأمام الشهيد إلى المفكر الجزائري المسلم مالك بن نبي دون أن يذكر اسمه الذي إعتبر أن حذف الشهيد لكلمة « متحضر » من عنوان كتاب كان تحت الطبع « مجتمع إسلامي متحضر » إعتبر مالك هذا التعديل ناشيء من « عملية دفاع نفسية داخلية عن الإسلام » واعتبر أن هذه العملية تحرم المفكر من مواجهة المشكلة على حقيقتها ... والحقيقة أن هناك فرقا بين المفكرين ، ولكنه الفرق بين وجهتي نظر متكاملتين ، وليستا متناقضتين فلم يغفل سيد قطب الشروط الموضوعية لبناء الأمة أو الحضارة الإسلامية ، ولكنه ولأسباب كثيرة كانت الشروط الذاتية تبدو أكثر وضوحا في أعماله فالشروط التي صنعت (الجيل القرآني الفريد) هي المنطلق ... كذلك لم يغفل مالك الشروط الذاتية هذه ، وكان يتحدث عن الدفعة الإيمانية التي إنطفأت نارها ... وضرورة إضرامها من جديد ، وكان إنسان (ما

بعد الموحدين) العقيم الذي تحدث عنه مالك هو الذي لاحظه سيد قطب وراه رأي العين حين تكلم عن إنسان (الجيل القرآني الفريد) الذي عليه أن يجدد ذاته ويتجاوز « إنسان مابعد الموحدين » وقابليته للإستعمار ... لم يغفل مالك هذه الشروط الذاتية ولكن ولأسباب كثيرة أيضا كان البحث عن الشروط الموضوعية أكثر وضوحا في أعماله ، كان يبحث في تجاوز التناقضات القائمة من خلال تركيب مبدع لفكرة الأمة الوسط ، ويرى أن هذا التجاوز لن يتحقق إلا بإرتفاع المسلم - الشاهد على العالم بالتقى والورع والصدق والوعي - بإرتفاعه إلى مستوى الحضارة كي يصبح معاصرا حقا ... لقد كان سيد ومالك يمثلان بصدق جناحي الحركة الإسلامية في المشرق والمغرب كما قال المفكر الإسلامي المعاصر توفيق الطيب .

وبخصوص الخلاف الوارد بينهما هنا فأستطيع أن أؤكد أنه كان خلافا في المصطلح... أي خلافا على [تعريف الحضارة] لغة على الأرجح وليس مضمونا ... الحضارة الإنسانية ـ كما يقول سيد قطب ـ هي التي تقتضي التحرر الحقيقي الكامل للإنسان ...

التحرر من العبودية لغير الله ، والمجتمع الإسلامي هو الذي يحقق هذا التحرر فهو بداية يجمع الناس على آصرة العقيدة والتصور والفكر ، وليس آصرة الجنس واللون والقوم والأرض ، فهذه الأشياء لا تمثل الخصائص العليا للإنسان ... إنها الروح والفكر خصائصه العليا ، والإنسان يبقى إنسانا بعد الجنس واللون والقوم والأرض ولكنه لايبقى

إنسانا بعد الروح والفكر ، وهو يملك بمحض إرادته أن يغير عقيدته وتصوره ومنهجه وفكره ، ولا يملك أن يغير لونه ولاجنسه ، أو يحدد مولده في قوم أو أرض وبالتالي فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة وإختيارهم الذاتي هو المجتمع المتحضر ... المجتمع الإسلامي هو الوحيد الذي رابطة العقيدة فيه هي رابطة التجمع الأساسية ، الكل فيه أنداد يلتقون على أمر شرعه الله لهم ولم يشرعه أحد من العباد ، وإنسانية الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع الإسلامي وليست « المادة » ، والمادة لايحتقرها المجتمع الإسلامي ... لا في صورتها النظرية ولا في صورة الإنتاج المادي الذي يعتبر من مقومات الخلافة في الأرض عن الله ، ولكنها ليست القيمة العليا التي تهدر فيها خصائص الإنسان ومقوماته كما يحدث في المجتمعات الجاهلية حيث تهدر كرامة الفرد وحريته - الأسرة ومقوماتها ... الأخلاق وحرمات المجتمع ... الخ ... من أجل توفير الإنتاج المادي .

إن للإسلام أخلاقه التي تميزه عن الحيوان ينشئها ، ويصونها في كل مجتمع يهيمن عليه سواء كان في طور الزراعة أم الصناعة ... البداوة أم الرعي .... فقيرا كان أم غنيا ، إنه مجتمع رباني يقوم فيه الإنسان بالخلافة عن الله في أرضه على وجهها الصحيح ، ولايعتبر الإبداع المادي وحده حضارة فالإبداع المادي يكون وتكون معه الجاهلية إن لم يحقق خصائص الإنسان العليا ... « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا

الله واطيعون » (الشعراء ، ١٢٨ ، ١٣١) فالمجتمع الإسلامي وليد الحركة ... الحركة فيه مستمرة ... تحدد وظائف الأشخاص ومراكزهم .... وهذه الحركة إبتداء تتمثل في العقيدة الآتية من الله إلى البشر تنشىء لهم تصورا خاصا للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات ، إنها حركة آتية من خارج نطاق الأرض ... محورها الإنسان وهذا الإنسان الواحد لايتلقى العقيدة وينطوي على نفسه ... إنه سينطلق بها ... فهذه طبيعتها الحية ، إن الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة إلى القلب ستمضي في طريقها قدما ، وحين يؤمن بها ثلاثة تقول لهم العقيدة ... أنتم الآن مجتمع إسلامي مستقل لايدين للجاهلية بالعقيدة ، ولاتسوده قيمها ... وهكذا ينشأ المجتمع الإسلامي .... الثلاثة يصبحون عشرة ... مائة ... ألفا ... ثم إثني عشر ألفا ... ويتقرر المجتمع المسلم .

ـ ٩ ـ

في أحد فصول الكتاب « التصور الإسلامي والثقافة » يحاول الإمام الشهيد إيضاح مدلول الحاكمية وعلاقته بالثقافة فيعلن أن مدلول الحاكمية في التصور الإسلامي لاتنحصر في تلقي الشرائع القانونية من الله وحده ... إن شريعة الله تعني كل ماشرعه الله لتنظيم حياة البشر ، وهذا يتمثل في أصول الإعتقاد ، وأصول الحكم ، وأصول الأخلاق ، وأصول السلوك ، وأصول المعرفة أيضا ... إن الأمر في الحاكمية هو أيضا الرجوع في شأن النشاط الفكري والفني إلى التصور الإسلامي ، وإلى مصدره

الرباني ، فالمسلم لا يملك أن يتلقى في أمر يختص بحقائق العقيدة ... التصور العام للوجود ... العبادة ... الخلق .... السلوك .... القيم والموازين .... المبادىء والأصول في النظام السياسي والإجتماعي والإقتصادي ... تفسير بواعث النشاط الإنساني وحركة التاريخ الإنساني ... لايملك المسلم إلا التلقي من ذلك المصدر الرباني ... لايتلقى إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه وممارسته لعقيدته في واقع الحياة ، المسلم يملك أن يتلقى في العلوم البحتة والنواحي الفنية ، في الإدارة والحرب عن المسلم وغير المسلم ... أما فيما يتعلق بتفسير النشاط الإنساني ، وحركة تاريخة .... تفسير الكون ونشأة الحياة ، فلايجوز للمسلم إلا أن يتلقى عن مسلم ... وهنا يبرز سؤال إستهلك جهدا ووقتا كبيرين من جهد ووقت الحركة الإسلامية : هل يباح لنا ... هل يحق لنا كمسلمين آمنا بالإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ... آمنا بأن الحاكمية لله ... هل يحق لنا أن نطلع على آثار الفكر الجاهلي ؟

أجاب المتنورون : نعم . وإلا فكيف سنعرف الجاهلية وإنحرافها ثم نصححه ونقومه ... وأجاب التقليديون أو المحافظون { عن عجز وليس قوة } أجابوا وتحت شعار { إذا عرفت الحق فلماذا أعرف الباطل ؟ ! }

لا إن هذا رجس من عمل الشيطان ! ....

وجاء أخيرا سيد قطب ليعلن أنه « المسلم » قد يطلع على كل آثار النشاط الجاهلي ولكن ليس بهدف أن يكون منه تصوره ومعرفته في هذه الشؤون كلها ... إنما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية ... ليعرف كيف

يصحح ويقوم هذه الإنحرافات البشرية يردها إلى أصولها الصحيحة في مقومات التصور الإسلامي ... وأضيف إلى ماقاله الإمام الشهيد أن المسلم إن لم يعرف الجاهلية عن عمد وسبق إصرار وبالتالي عن وعي وحذ رفإنها قد تدخل إلى عقله بل ودمه ! فيحدث الإنفصام والإزدواجية في شخصيته ، ويقول عمر رضي الله عنه : « ينقض عرى الإسلام عروة عروة من عاش في الإسلام ولم يعرف الجاهلية » إن المعرفة مطلوبة بل واجبة ، أما التلقي من غير لله فهو المرفوض ويجب أن نفرق بين المعرفة « الإطلاع » وبين التلقي « الإتباع » ... إن التلقي لايكون إلا عن الله ، والحقيقة لاتستمد إلا من الوحي وهذا عين ماطرحه المفكر الإسلامي توفيق الطيب في بحثه الهام « الخصائص الثابتة اللازمة والخصائص المكتسبة للحركة الإسلامية » (المسلم المعاصر العدد الإفتتاحي) حين قال تحت عنوان « إن حركتنا حركة ربانية : » : « إن الحقيقة عندنا تستمد من الوحي المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم أي من القرآن ... فمن يقول لنا أنه ينزع إلى طلب الحقيقة نقول له : إننا وجدناها ونحياها فما تريد أن تتملكه تملكناه ... إن نظام المفاهيم عندنا يستمد كله من الوحي المنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويعبر عن مفاهيمنا بالمصطلح القرآني أولا فإن لم يوجد فبمصطلح مرتبط تاريخيا بالمصطلح القرآني : مصطلحات التراث فإن لم يوجد فبمصطلح يحقق مضمون المصطلح القرآني » .... « إن نظام القيم عندنا يستمد من نفس المصدر السابق كما تحقق في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان خلقه القرآن » إن

« قيمنا الجمالية تستمد أيضا من نفس المصدر وترتبط إرتباطا وثيقا بنظام قيمنا الأخلاقية ، وعلى القيم الجمالية والقيم الأخلاقية معا تنهض قيمنا التربوية » ، ثم يقول توفيق الطيب : « خارج نطاق المفاهيم والقيم لايلزمنا الإسلام بشيء ، فتعاملنا مع الأشياء - الطبيعة - مفتوح إلى أبعد الحدود . ومن هنا فنحن منفتحون على العلم بكل آفاقه وعلى الصناعة الحديثة بكل فوائدها وعلى التقدم الإجتماعي والإقتصادي بكل أبعاده » ....

هذا التصور الإسلامي الخالص يطرحه توفيق الطيب الذي أمضى وقتا طويلا كمسلم يبحث في آثار النشاط الجاهلي بل قضى من عمره عشر سنوات دارسا للفلسفة في ألمانيا .

نفس التصور كان سيد قطب يطرحه في « المعالم » وسيد قطب هو الذي عاش - كما يقول في نفس الفصل - أربعين سنة يقرأ ويطلع في معظم حقول المعرفة الإنسانية قبل أن يكتمل أو يستقر تصوره الإعتقادي السليم ، وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره ، على حد تعبيره

ـ ١٠ ـ

لقد جاء الإسلام ليقرر أن هناك وشيجة واحدة تربط الناس في الله ، إذا إنقطعت فلا صلة ولا مودة « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أوأبناءهم أو إخوانهم أو

عشيرتهم » (المجادلة ٢٢) لقد جاء الإسلام ليرفع الإنسان ... يخلصه من وشائج الأرض والطين ، فلا وطن للمسلم إلا الذي تقام فيه شريعة الله ، لا جنسية للمسلم إلا في عقيدته التي تجعله عضوا في الأمة المسلمة في دار الإسلام ، وليست قرابة المسلم أباه أو أمه أو أخاه وزوجه وعشيرته مالم تنعقد الأصرة الأولي في الخالق فتتصل من ثم بالرحم « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا آولئك بعضهم أولياء بعض » (الأنفال ٧٢) ، وهي ولاية تتجاوز الجيل إلى الأجيال المتعاقبة « .. ربنا إغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .. » (الحشر ١٠) ، لقد جاء الإسلام ليرفض عصبية القبيلة والجنس والأرض « دعوها فإنها منتنة » ، « ليس منا من دعا إلى عصبية » ، وهكذا لم يعد وطن المسلم هو الأرض وإنما « دار الإسلام » ، الدار التي تسيطر عليها عقيدته وتحكم فيها شريعة الله وحدها ، لقد حارب محمد صلى الله عليه وسلم مكة وإعتبرها دار حرب رغم أنها وطنه الذي ولد فيه ورغم أنها أهله الذين نما بينهم ، وإنطلق من المدينة التي أصبحت موطنه الحقيقي حيث ترفرف رايات الإسلام ، إن هذا التصور الرفيع للدار والجنسية وللقرابة هو الذي ينبغي أن يسيطر عليها أصحاب الدعوة إلى الله ...... ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لاتختلط به أوشاب التصورات الجاهلية الدخيلة ولاتتسرب إليه صورة الشرك الخفية .. الشرك بالأرض ... الشرك بالجنس .. الشرك بالقوم أو الشرك بالنسب .. « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال

إقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين » (التوبة ٢٤)

ـ ١١ ، ١٢ ـ

الإسلام تصور مستقل للوجود كامل متميز ... ينبثق منه منهج ذاتي مستقل للحياة كلها ، يخالف بشكل أساسي التصورات الجاهلية قديما وحديثا ....

ووظيفة الإسلام أن ينشئ حياة إنسانية توافق تصوره وتمثله في صورة واقعية ، وظيفته ألا يصطلح مع الجاهلية وتصوراتها ، لم تكن هذه وظيفته يوم جاء .... ولن تكون اليوم ، الإسلام لن يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية لأن وظيفته أن يقصيها عن قيادة البشرية ، وأن يتولى هو هذه القيادة ، الإسلام لم يجئ ليربت على شهوات الناس المتمثلة في تصوراتهم وأوضاعهم ، بل ليلغي كل هذا إلغاء ، هذه حقيقة يجب أن نطرحها دوما للناس دون تلعثم أو تردد ، سنخاطبهم في عطف ورحمة ، ولكن في ثقة وقوة ، لانتدسس إليهم ، ولانربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة ... نقول لهم : ماأنتم فيه نجس ، والله يريد أن يطهركم ، هذه الحياة التي تحيونها دون ، والله يريد أن يرفعكم ، ماأنتم فيه شقوة ، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ، ويسعدكم ... لن نقول لهم إن الإسلام جاء من أجل تعديل هنا أو تغيير هناك . نحدثهم مرة

عن ديموقراطية الإسلام !! وأخرى عن إشتراكيته !! كلا ... إن الإنتقال من الجاهلية إلى الإسلام نقلة بعيدة واسعة ، كان هذا حال محمد صلى الله عليه وسلم مع الجاهلية منذ اليوم الأول ، ويجب أن يكون حالنا اليوم ، إن الإسلام كان قويا وهو اليوم كذلك ... وغدا ، لأن عناصر القوة تكمن في هذه العقيدة دائما ، فهي تملك أن تعمل في أسوأ الظروف وأشدها حرجا ... إنها تكمن في الحق البسيط الواضح الذي تقوم عليه ، ليس في إسلامنا مانخجل منه أو نضطر للدفاع عنه ، أو يضطرنا للتقرب من ركامهم المضطرب البائس ، وأولا وأخيرا لا ندعوهم مقابل أجر ، إننا نتقدم لانريد علوا في الأرض ولا فسادا ... نتقدم وفي نفوسنا يستقر الإستعلاء إزاء الأوضاع والقيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان ... والإستعلاء على قوى الأرض الحائرة عن منهج الإيمان ، تقاليد الأرض وقوانين الأرض التي لم يشرعها الله ، الإستعلاء مع ضعف القوة ، وقلة العدد وفقر المال تماما كالإستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء ، الإستعلاء الذي لايتهاوى أمام قوة باغية ، ولاعرف إجتماعي ، ولاتشريع باطل ، ولاوضع مقبول عند الناس بدون سند من الإيمان ، والإستعلاء بالإيمان ليس لمجرد عزمه منفردة ولانخوة دافعة ، ولاحماسة فائرة ... إنما الإستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز في طبيعة الوجود ... الحق الباقي وراء منطق القوة ، فالمؤمن هو الأعلى ... الأعلى سندا ومصدرا ، فماذا تكون الأرض كلها ؟ وما يكون الناس ؟ وما تكون القيم السائدة في الأرض وهو من الله يتلقى ، وإلى الله يرجع ، وعلى منهجه يسير ...

واليوم والمسلم يقف مغلوبا مجردا من القوة المادية لايفارقه شعوره أنه الأعلى ... فالناس جميعا يموتون وهو يستشهد .... هم يغادرون إلى النار وهو يغادر إلى الجنة ... إن حكمة الله هي التي قررت أن تقف العقيدة مجردة من كل زينة وطلاء وإغراء ليقبل عليها من يقبل وهو على يقين من نفسه ، فهو يعرف أنه الجهد والمشقة والجهاد والإستشهاد

ـ ١٣ ـ

« إن الناس جميعا يموتون وتختلف الأسباب ولكن الناس جميعا لاينتصرون هذا الإنتصار ولايرتفعون هذا الإرتفاع ، ولايتحررون هذا التحرر ولاينطلقون هذا الإنطلاق إلى هذه الآفاق .. إنما هو إختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت وتنفرد دون الناس بالمجد في الملأ الأعلى وفي دنيا الناس أيضا ... إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال ! » هذه الكلمات لم تقل في حفل تأبين للإمام الشهيد .. إنها كلمات جاءت في الفصل الأخير من كتابه الأخير .... كلماته إلى الطليعة المؤمنة وإلى كل البشرية ...

قبل أن يستشهد فينتصر ويتحرر .... ينطلق ... فيختاره الله ويكرمه فينفرد بالمجد في دنيانا وفي الملأ الأعلى ... أصدروا عليه حكم الإعدام فابتسم ... حاول الطغاة أن يسلبوه إستعلاءه ... أن يطفئوا سحر كلماته ويجهضوا الأجيال القادمة التس ستتربى عليها فقالوا له أطلب الرحمة

... نظر إليهم هازئا وقال : إن كنت محكوما بحق فأنا أرتضي حكم الحق ، وإن كنت محكوما بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل ...... لأنه كان يعلمنا قبلها بعامين وفي الفصل الأخير « إن النصر في أروع صوره هو إنتصار الروح على المادة وإنتصار العقيدة على الإثم ، وإنتصار الإيمان علي الفتنة ، إنتصار يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار .... وهذا هو الإنتصار»

كان يقول أيضا في نفس المكان « لقد كان في إستطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل هزيمة إيمانهم ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم ! وكم كانت البشرية كلها تخسر ! كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير ، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة وبشاعتها بلا حرية ، وإنحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد » ..... ياإلهي .... أشهد أنني أفهم الآن سر علامة التعجب (!) التي جاءت في نهاية مقدمة كتابه العظيم ، ولم أجد لها مبررا في البداية ، لقد كان يعدني بعالم جديدة ! يعدكم جميعا ... يعد كل المؤمنين .

بينما هو في الفصل الأخير يصف مصرعه وإستشهاده ، ويبحث عن معادل موضوعي يصور مصيره فلا يجد إلا أصحاب الأخدود ... إنه يبدو الآن توفيقا إلهيا عجيبا ... أقرأ مصرعهم وكأني أشهد مصرعه ....لقد تحررت قلوب تلك القلة المؤمنة البعيدة في التاريخ كما تحرر قلبه إرتفعت أرواحهم كما إرتفعت روحه .... إنتكست جبلات طغاة ذلك الزمان وراحوا يتلذذون مشهد التعذيب المروع العنيف .... بخساسة لم

يرتكس فيها وحش قط ... تماما كما إنتكست جبلات طغاة هذا العصر !

وهم يبطشون به وبإخوانه الأطهار .... أشهد أني أرى « المعالم الجديدة » .... أنفضوا عن أعينكم قسوة النعاس تجدوه فيكم ..... « إن الحياة وسائر مايلابسها من لذائذ وآلام ، ومن متاع وحرمان ، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان ، وليست هي السلعة التي تقرر الربح والخسارة » ... وهذا هو الطريق ترسمه نهاية المعالم التي قال عنها الأستاذ محمد علي الضناوي في كتابه « الطريق إلى حكم إسلامي » : « لم تتضح المبادئ التي حددها الإمام الشهيد حسن البنا إلا « بالمعالم التي رسمها سيد قطب »

هذا هو الطريق ... وهذا يامصر كتاب سيبقى فوق جبينك سراجا منيرا ....

× × ×

وبعد معذرة .... أستاذنا الإمام الشهيد ... معذرة أني وضعت كتابك فوق طاولة البحث والتحليل ... معذرة إن كنت أصبت .... وألف معذرة إن كنت أخطأت

عرض ورؤية

المؤلف في سطور

جاءت اسرة فتحي الشقاقي، الذي يعتبر من اهم مفكري الحركة ، من قرية زرنوقة في قضاء الرملة في فلسطين . وفي عام ١٩٤٨ هاجرت اسرة الشقاقي الى القطاع حيث اقامت في مخيم رفح للاجئين. واسرة الشقاقي هي اسرة فقيرة حيث يعمل الاب عاملا. درس فتحي الشقاقي في جامعة بيرزيت بالضفة الغربية وتخرج من دائرة الرياضيات وعمل في التدريس . واثناء عمله درس مرة اخرى للشهادة الثانوية حيث التحق بكلية الطب في جامعة الزقازيق وعاد ليعمل طبيبا في مستشفى المطلع بالقدس. وبعد ذلك عاد ليعمل طبيبا في قطاع غزة. واثناء دراسته الجامعية في مصر اعتقل الشقاقي مرتين في عام ١٩٧٩. كما سجن في غزة عام ١٩٨٣ لمدة ١١ شهرا. ثم سجن مرة اخرى عام ١٩٨٦ وحكم عليه بالسجن الفعلي لمدة ٤ سنوات، و٥ سنوات اخرى مع وقف التنفيذ بتهمة التحريض ضد الاحتلال الاسرائيلي ونقل الاسلحة الى القطاع والانتماء الى حركة الجهاد الاسلامي. وقبيل انقضاء فترة سجنه قامت السلطات الاسرائيلية بابعاده من السجن مباشرة الى خارج فلسطين المحتلة بتاريخ ١ اغسطس (آب) عام ١٩٨٨.